

أساليب الاستغلال التي كان يمارسها البورجوازيون الأرستقراطيون على العمال والفلاحين المضطهدين من جهة، وتتيح له الفرصة لمقاومة الأغنياء والتبشير بالمذهب الشيعي من جهة أخرى. وهذا مما جعل تلك الشخصيات تكاد تكون أبراقاً لا تتحدث بلسانها الذاتي، وإنما تتحدث بلسان غوركي بغض النظر عن مستوياتها العقلية والنفسية، بحيث تتحول الرواية في أغلب الأحيان إلى نوع من الاستعراض تفقد فيه الأحداث والشخصيات حركتها المستقلة، وتحرك وتنطق وفق رغبات المؤلف في تحقيق الفكرة التي يؤمن بها. إن غوركي يقدم لنا شخصية العجوز «بيلاجيا» على أنها أمية لا تحسن الكتابة والقراءة، وتعترف بهذا هي نفسها فتؤكد عجزها عن فهم مبادئ ابنها «بافل»^(٣٨) ولكننا نجد بعد قليل تتحدث بلسان المرأة المثقفة التي تخوض في قضايا خطيرة للغاية، وتضحى بأمومتها من أجل الفكرة الشيوعية، فنراها لا تحزن حين يرمى بابنها «بافل» في غياهب السجن وتماور «الرفيق الأوكراني» قائلة: «هو الآن قابع في السجن. إنه لأمر مخيف.. لكنه ليس مخيفاً مثله فيما مضى. لقد اختلفت الحياة، ومخاوفي اختلفت أيضاً. أنا الآن أخاف من أجل الجميع. ولقد اختلف قبلي أيضاً لأن نفسي فتحت عين قلبي، فهو ينظر إلى العالم ويحسن الكتابة والفرح في الوقت ذاته.. أنا الآن أفهم حقيقتكم: ما دام هناك أغنياء، فإن عامة الشعب سيظلون عاجزين عن تحصيل أي شيء كان... فلا فرح، ولا عدالة، ولا أي شيء على الإطلاق»^(٣٩).

فواضح من كلام الأم ولهجتها أنها لم تتأثر بدخول ابنها الوحيد إلى السجن وتركها دون عائل في الحياة. ولا عجب في هذا ما دامت هذه الأم ليست حرة في عواطفها، وما دام غوركي يريد لها أن تكون كذلك.

وحين عزمت «بيلاجيا» على تعلم القراءة بمفردها كانت تحب النظر في أطلس علم الحيوان، وتستغرق في تأمل رسوم المخلوقات التي كانت توحى إليها بأفكار فلسفية وإنسانية فوق مستوى إدراكها، وتعبّر عنها لنيقولاي إيفانوفيتش قائلة: «أفليست جميلة، يا نيقولاي..؟ كم يوجد من هذا الجمال الغالي، في